توأمي
قصة قصيرة
تأليف
حسين السنبختي

تَوْأمي

قصة قصيرة

تأليف:

حسين السنبختي

published on:

amazon kindle direct publishing

amazon.com/dp/B0851SBFMC

ASIN: B0851SBFMC

في الأحوال الطبيعيّة يكون نَوْمي ثقيلًا، بل ثقيلٌ جِدًّا للدرجة التي أَشْعُر وكأنّني أنام في جُحْرٍ مُمتدٍّ ومُتّسِعٍ بما يكفي ليحتوي طولي وجسدي بإحكامٍ، ويعزِلُني تمامًا عن العالم الخارجي. أما بعد ليلةٍ ماجنةٍ كلَيْلة أَمْسَ؛ قضيتها خارج البيت كأغلب أوقاتي، واقترفت فيها عددًا لا يُستهان به من الفواحش والمُوبِقات التي لطالما كانت مُحبَّبةً إلى قلبي، واحتسيت ودخَّنت وتجرَّعت أنواعًا من الخمر والمُكيِّفات والمُخدِّرات التي يُحَلِّق بها ويُدمِنها عقلي؛ فيكون نومي بعدئذٍ كسُباتٍ طويلٍ بالغ الثقل والعُمق، كأنني رُحْت في همود المَوْت.

نادرًا ما تكون أحوالي طبيعيّةً، حتى أنني لا أتذكر عدد المرات التي استيقظت فيها بعد نومةٍ كتلك لأجد أخي جالسًا أمامي غارقًا في بكاءٍ ونحيبٍ بعدما أضنته محاولاتٌ فاشلةٌ في إيقاظي، وفي ظلام الغرفة أراه مُتسمِّرًا تجاهي كأنه ظِلِّي، ومُرتعِدًا لأنّه ظنّ أنني قد فارقته هو والحياة؛ فأدفعه ببغضٍ وغيظٍ وأنا أَسُبّه وأُبْعِده عني بعدما احتضني حامدًا الله أنني مازلت حيًّا. لكنني مع ذلك، بعد تلك الليلة، وقبل ساعاتٍ ليست بقليلةٍ عن موعد استيقاظي التلقائيّ؛ أقَضَ مَضجعي أصواتُ ضربٍ وخبطٍ مزعجةٌ جدًّا قادمةً من سُلَّم البيت كأنّها أصواتُ تهديم. وسُلَّم بيتنا ليس به بئر سُلَّمٍ، حيث المسافة الأفقية بين كل قلبةٍ وقلبةٍ تكاد تساوي صفرًا، وبالكاد تتسع للدرابزينات التي تتراصّ رأسيًّا فوق بعضها البعض مُتماسَةً ومتواصِلةً من

نهاية إحداها لبداية أخرى؛ مما يؤدي إلى انتشار العتمة وصدى الصوت على حدٍّ سواء، غير أن العتمة تَفِرُّ بمجرد تشغيل المصابيح، بينما لا ينفك صدى الصوت يَكُرُّ على آذاننا ويتمحَّل أن يصدر عن صوت أيّ شيءٍ ولو كان دبيب نملٍ صيفيٍ.

لم يكن يؤرقني هذا أبدًا، رغم أن غرفتي التي أنام فيها يفْصِلُها عن السُلَّم شُباكٌ خشبيٌ غير مُتقَنِ النِجارة؛ والفضل في ذلك يعود إلى قضائي جُلَّ وقتي في البيت في نومي الذي يذهب بي إلى عالمٍ آخرَ. لكنني الآن فقط أدركت كَمْ كان هذا عيبًا غبيًّا في تصميم البيوت ذات المساحات الضيقة، بسبب كل هذا الصدى الصاخبِ القادمِ من السُلَّم الذي بلا بئرٍ، والذي اخترق دَوِيُّه كلَّ شيءٍ كنت أظنه مَنيعًا، وما انفك يفعل هذا حتى استفقت تمامًا، واستطعت تمييز تلك الأصوات التي أَخَذَت في الخفوت تدريجيًّا.

خرجت من غرفتي مُترنِّحًا، وفتحت باب الشقة أولًا قبل أن أَهِمَّ بفتح جَمَّ غضبي على الشخص الوحيد الذي أعلم أنه يقف وراء ذلك؛ أخي. وجدته يقف لاهِثًا على صَدَفَة السُلَّم السفلية المقابلة للباب، مُمسِكًا بماسورةٍ حديديّةٍ في يده، ويتردّد صدى نهيجه في أرجاء السُلَّم عاليًا؛ هو إذن المسؤول عن كل هذا! كنت قد ركلته بقوةٍ شديدةٍ بمقدمة حذائي الجلديّ بعد عودتي من الخارج، وقبل نومي مباشرةً؛ حين عاد يقدِّم لي مع ابتسامته التي تأبى أن تغادر وجهه أبدًا نصيحةَ أن أَنتهي من أفعالي ومن تلك

السهرات شبه اليومية؛ لكيلا تُودي بصحتي وشبابي. وصِحت فيه مُغتاظًا أن يدعني وشأني، بينما أَعُضّ على نواجذي وأستشعر انغراز مقدمة حذائي المُدَبَّب بقصبة رجله، وأُحَذِّره من محاولة إيقاظي أو إزعاجي وأنا نائمٌ مرةً أخرى، حتى ولو من أجل الطعام كعادته. لكنه الآن أيقظني بنجاحٍ، وبطريقةٍ مختلفةٍ يفعلها لأول مرّةٍ ولا تشبه محاولاته السابقة.

أخي لا يشبهني البتة، بل نكاد نكون مُتناقِضَين في كلّ شيءٍ؛ فهو أبيضُ اللون وأنا أسمرُ، هو طويلٌ وأنا قصيرٌ، شعره ناعمٌ، وشعري خشنٌ مُجعَّدٌ، ملامحه هادئةٌ وجذابةٌ، بينما ملامحي عكس ذلك تمامًا، ومع ذلك، ويالللعجب؛ فهو تَوْأمي، تَوْأمي الذي لم يكتفي بأن سبقني إلى الحياة ببضع دقائقٍ، بل كان دائمًا يسبقني في الدراسة، وانجذاب الناس نحوه، واستلطاف وحُبّ الجميعِ له. الجميعُ باستثنائي يُسلِّمون بأننا توأمٌ، أما أنا؛ فقد كانت دومًا من مُسلَّمات حياتي وجوب وجودنا في مكانين مختلفين، وكذلك كنت أفعل، بل إن كثيرًا ما طَوَّعت لي نفسي دَسَّ السُمِّ له، ولكنني لم أقدر مَرَّةً على أن أطاوعها على فعل ذلك، لذا؛ فقد كنت من حينٍ إلى آخرَ أَعْمِد إلى أنْ أضع له مُنَوِّمًا لأتخلص منه ولو مُؤَقتًا.

دققت نظري -الذي لم يتخلّص من غَبش النوم بعد- حتى أتأكّد من أدواته التي استخدمها لإحداث كل هذا الضجيج ليوقظني؛ فوجدت -بالإضافة إلى الماسورة الحديديّة التي يَقْبِض عليها- اسطوانةَ الـ «بوتوجاز» الممتلئة

-التي كانت بالأعلى بجوار باب الشقة وكنا على وشك تركيبها مكان الأخرى التي فرغت بالأمس- بجانبه بالأسفل، فركت عيني بقوةٍ وذُعرٍ لأتيقن من شيئَين تسببا في انقباض قلبي، وخشية أن يكون نظري لا يزال لم يستعد جلاءه؛ دَنَوت عِدّة درجاتٍ نزولًا، وأمعنت النظر في ذلك الشيء الذي يَمتدّ من أسفل الاسطوانة؛ لأجده ثُعبانًا! كان ذيله مُثبَتًا أسفل ثقل الاسطوانة، بينما يتمدّد بقية طوله من تحتها ميتًا ومُهشَم الرأس بلا حراك.

نزلت أكثر حتى أصبحت على الدرجة الأخيرة في مواجهته لأتحقَّقَ عن قربٍ من وجه أخي الذي ما زال يلهث بقوةٍ، ولأتأكد أن ملامح أخي بالفعل قد انقلبت وتلاشى منها هدوؤه وابتسامته المعهودتان، وكأنّه بات شخصًا غير الذي أعرفه، وحين تأكدت من أنَّ أخي قَتل ثُعبانًا حقيقيًّا، وأنَّ وجهه قد امتقع وفقد ابتسامته واعتلته صُفرةٌ؛ انقبض قلبي فجأةً تعاطفًا وخوفًا على أخي! الذي أراه لأوّل مرّةٍ في حياتي على تلك الصورة.

اصطنعت ابتسامةً عريضةً وهادئةً لأطمئنه، وأخبرته: «لا عليك يا أخي، الثُعبان مات بالفعل فهدِّئ من روعك، المهم هل أنت بخير؟»، وأضع يدي برفقٍ على صدره الذي يعلو ويهبط بقوةٍ مثل موجات بحرٍ متقلبةٍ بينما أُطبطب عليه وأنتظر إجابتَه، فلا يجيبني سوى بكلمتَيْن سببتا لي ذُعرًا إضافيًّا وجعلتاني أترك كلَّ شيءٍ في مكانه وأُهرول به من فوري إلى المستشفى العام الذي كان قريبًا من بيتنا. وحين وصلنا صَرختُ في وجه الطبيب الذي كان يجلس على مكتبه مُتسمِّرًا ومُتسامِرًا مع الممرضات:

«انقذوا أخي رجاءً!». ببرودٍ يرمق الطبيب أخي الذي يقف على قدميه ويبدو له سليمًا فيسألني عابِسًا بعد تلاشي ابتسامته التي كانت موجهةً حصرًا إلى الممرضات: «ماذا به؟»، فأُخبِره بذُعرٍ متزايدٍ: «لدَغه ثعبانٌ.»؛ يرتبك الطبيب ويقف سائلًا عن توقيت اللدغة ووصْف شكل الثُعبان، فأُعطيه توقيت اللدغة، ولا أتمكن من إعطائه وصفًا لشكل الثعبان. يخبرني برفقٍ وبصراحةٍ بعدم وجود قسمٍ للسموم بالمستشفى، وأنه سيحَوِّل أخي فورًا إلى أقرب مركز طوارئ مُزوَّدٍ بهذا القسم حتى يأخذ المصل المناسب هناك؛ ومن أجل ذلك يتوجب تَوَفُّر وصْفٍ لشكل الثعبان لكي يُحدِّدوا فصيلته ثُمّ المصل المضاد لسُمِّه، وبعد أن علم أن الثعبان هاجم أخي في البيت وقتله هناك؛ طلب مني الذهابَ سريعًا وأخْذَ لقطاتٍ قريبةٍ للثُعبان بكاميرا الهاتف دون أن ألمس الثُعبان، ريثما يقوم هو بفحص أخي وعمل الإسعافات الأولية، وسألني إن كان أخي قد أخذ تطعيم الـ «تيتانوس» صغيرًا، فأجبته بأني لا أعلم.

هرولت إلى البيت مُتذكِّرًا أنني قد تركت هاتفي بداخل الشقّة، صَعدت الدَرَج بسرعة وتعجل متجاوزا ولامحا الاسطوانة بطرف عيني دون أن أنظر إليها أو أقف عندها، كان كل همي أن أجلب هاتفي وأنجز المهمة بسرعة لأعود إلى أخي وأنقذه قبل أن يسري سم الثعبان في جسده، قبل باب الشقة ببضعة درجات تعَثَّرْتُ على إحدى الدرجات التي كان جزءًا كبيرًا من حافَّتِها قد تَهشَّم جَرَّاء جرجرة أخي الاسطوانة عليها في خضمّ معركته

مع الثُعبان على ما يبدو؛ فباتت تلك السُلَّمة تسبب لمن يصعد غير منتبهٍ لها النزولَ بمقدار درجةٍ، وتُسَرِّع نزول من يهبط بمقدار درجةٍ، ولربما أوقعت من لَمْ يراقبْ خُطُواتَه وسببت له مشكلةً أكبر من ذلك، سيتوجب عليّ تنبيه أخي وتَوَخِّي الحذر حتى نعتاد الأمر. أحضرت الهاتف، وأخذت حافظة نقودي، وهبطت الدرج بينما أفتح تطبيق الكاميرا استعدادا لتصوير الثعبان، ركزت نظري واقتربت من الاسطوانة، وانحنيت لأخذ لقطاتٍ قريبةٍ واضحةٍ، خَرَجَتْ مني شهقةٌ وانتفاضةٌ اقشعر على إثرها جُلّ جسدي واعتدلت مُرتاعًا ومُتقهقِرًا خُطوةً إلى الوراء؛ لقد وجدت كل شيءٍ لم يبرح مكانه إلا الثُعبان الميّت، كان قد اختفى، ولا أعلم متى وكيف! راقبت الذُعر وهو يفترس ملامح وجهي، وهالني اكتساء جلدي المفاجئ بشحوب العائدين من الموت، وكأنه قد تبدل لتوه بجلدٍ آخرَ غير القديم؛ بينما كنت أنظر إلى نفسي في شاشة الهاتف المفتوح على تطبيق الكاميرا، والتي كانت مضبوطةً على وضع الكاميرا الأمامية، ولم يَتَسَنَّ لي أن أغيرها؛ إذ فاجأني اختفاء الثعبان.

أغلقت التطبيق والهاتف وعُدّت مُرتبِكًا ومُسرِعًا إلى المستشفى، وقبل أنْ أُخبر الطبيب؛ بادر يطمئنني أنّه قد فحص أخي جيدًا، وليس ثمّة أثرٌ للدغةِ ثُعبانٍ بجسده، اللهم إلا كدمةً دمويةً حديثةً بقصبة رجله اليسرى، وغالبًا هي المسؤولة عن زكّته ناحية اليسار، ويؤكد لي أنّه بخيرٍ، وفقط يعتريه بعض التوتر.

سألته مُتشكِّكًا: «كيف وقد أخبرني أخي أن الثُعبان قد لدغه!»، يَردُّ عليّ بأنه ربما هُيأ لأخي في أثناء مطاردته للثُعبان أنه قد لدغه، وربما حاول الثُعبان بالفعل، ولكنْ لم يَنْفَذ سمُه إلى جسده، وربما تمكن من عضِّه وكان الثعبانُ غيرَ سامٍّ؛ فهناك أربعمائة نوعٍ من الثعابين السامّة فقط من أصل ثلاثة آلاف فصيلٍ. أؤكد له أنّ أخي أخبرني أنه قد لُدِغ، وأخي ليس من النوع الذي يكذب أو يتوهَّم، وأنّه ليس على طبيعته، وأنا أخشى عليه. فيعاود مُحاوِلًا إقناعي أنه بخيرٍ، ولا شيءَ به غير تلك الكدمة المُحتقِنة في قصبة رجله اليسرى، والتي تداويها الممرضة له الآن. ويصف لي على ورقةٍ لونها أزرقُ كزرقة المرض بعض الأدوية والدهانات، ويناولها لي بعد أن كتبها بخطٍ مُتعرِّجٍ وملتوٍ يُشبه ثعابينَ كثيرةً ميتةً ومتداخِلةً، ويَستكمل كلامه مُطمئِنًا: «وبخصوص قلقك على أخيك؛ فما عليك إلا مراقبته لاثنتي عشرة ساعة للاطمئنان عليه، والتأكد أنْ ليس هناك شيءٌ خطيرٌ، رغم أن الأمرَ بائِن.».

يأتي أخي ناحيتي وهو يَعرُج بعدما انتهت الممرضة من تَضْميد كدمته، أُسارع بالاقتراب منه، وأَطلب منه أنْ يستند على كتفي، لكنه يرفض، ويخبرني أنه بخير. أَصطحبه ونعود إلى البيت، وفي أثناء صعودنا الدَرَج يَلحظ أخي عدم وجود الثُعبان فيسأل عنه، أُخبره بعد تفكيرٍ للحظاتٍ أنني قد تخلصت منه، وأشرد للحظةٍ. تَزِلّ قدم أخي عند الدرجة المكسورة ويميل إلى الوراء فأُمسِك به قبل أنْ يقع، وأعتذر له لائِمًا نفسي على شرودي

وعدم تنبيهه. يتجه أخي فور دخولنا الشقة إلى غرفته، فأخبره أنني سأَعُدّ طعامًا لكلينا. أَهِمُّ بجلب الاسطوانة الممتلئة من أجل تغييرها بالفارغة، وأبحث أسفلها مْفكّرًا بتوجسٍ «أين ذهب هذا الثُعبان!»، أنا متأكدٌ أنّه كان ميتًا، لقد كان رأسه مُهشَّمًا ولا يُحرِّك ساكِنًا، وعندما لا أجد أثرًا له؛ أُمسِك بالماسورة الحديدية وآخذها مع اسطوانة الغاز إلى داخل الشقة. بعد تبديل الاسطوانة ووضع إناء الطعام على النار؛ أَدخُل لأطمئن على أخي، فأَجِده يَغُط على سريره في نومٍ عميق. أُطفِئ نار الموقد وأعود لأجلس بجواره أُراقبه قلِقًا عليه، وأدعو الله أن يصحو وهو بخيرٍ بينما يقلقني التفكير في أمر هذا الثُعبان، وأتسائل وَجِلًا إنْ كان ما زال حيًّا!؛ فينقبض قلبي وأقبض على ماسورة الحديد بقوةٍ وأتَّكِئ عليها وأنا أَرْقُب أخي مُتمنيًّا أنْ أراه مُستيقِظًا صحيحًا مُعَافًى ومُبتسِمًا كعادته.

بعد قليلٍ أَشعر برغبةٍ عارمةٍ في النوم، لكنني أَمنع جفوني من أن تغفو بإصرارٍ وعِنادٍ، حتى شَعرت وكأنهما قد اختفيا وأنني رُحْتُ في النوم وعيناي مفتوحتان. وحين استفقت لَمْ يكن أخي نائمًا في سريره؛ فانتفضْتُ مَفزوعًا باحثًا عنه، لأَجِده في الصالة يشاهد التلفاز، ابتسمت فَرِحًا لأنه بخيرٍ، ثُمَّ سُرعان ما انتبهت لوجود لُفافةٍ بين أصابعه، وسريعًا أدركت مَزكومًا برائحة الدخان أنه يدخن الحشيش، إنه الحشيش الذي كان خاصًّا بي. بل ووجدته يشاهد فيلمًا إباحيًّا على التلفاز بلا أي خجلٍ من وجودي. حافظت على ابتسامتي واقتربت منه مُعرِبًا عن سعادتي لكونه بخيرٍ، ثم

نصحته بأنّ هذه أمورًا لا تليق به، وستضره ضررًا كبيرًا؛ رمقني في ضيقٍ وغضبٍ شديدين، ثم دفعني بقوةٍ حتى كِدت أَسقُط للوراء. كان وجهه محُتقِنًا للغاية، وكأن الغضب قد ملأه حتى فاض وطفح على ملامحه، وعيناه كانتا حمراوين وكأنهما تتهيئان لإطلاق الشرر، ثم ثار فيّ بصوتٍ عالٍ وهو يقول: «لا شأن لك بي، أنا حرٌ أفعل ما أشاء.»، ثم أَطفأ السيجارة والتلفاز ونظر إليّ ببغضٍ واحتقارٍ وغادر البيت وتركني وقد ازداد قلقي وخوفي عليه. فقررت تحضيرَ الطعام وانتظاره حتى يعود، وفِعْلَ شيءٍ آخرَ؛ سأبحث في كُلِّ مكانٍ بالبيت عن هذا الثُعبان الذي فعل هذا بأخي، ثُمَّ أقتله.